المعرفة بالله تعالى أو ما يقرب من هذه الشهادة ، لكن من أراد ان يوهمهم ذلك الخداع لا يسيرون في ظلمات الاوهام ، ولا يشهدون الزور ، ولا يتملقون لاعطاء مراتب الصوفية لاهل الضلال . واذا كان أولئك الشهداء معتقدين صدق أقوالهم فلماذا لا يدينون بدين العارفين بالله تعالى واقطاب دينه وأهل سره ؟ تبا لمن يبيع دينه ووجدانه بالأماني الوهمية وويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكتبون

مقدمة

كتاب الحكمة الشرعية (*

(في محاكمة القادرية والرفاعية)

بسم الله الرحمن الرحيم

واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون * ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم *

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي الى الحق والى طريق مستقيم ،

(*) فاتحة العدد الثامن والعشرين الصادر في ١ جمادى الأولى سنة ١٣١٦

ولا ينكب عن نهجها ويرغب عن هديها الا القوم الضالون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقراً، فبشره بعذاب أليم *

هذا خطاب الله تعالى لنا في كتابه المعصوم، وهو الامام الحق الهادي الى سواء السبيل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أمرنا بالاعتصام بحبله المتين، ونهانا عن تفرق الكلمة واختلاف الوجهة، وامتن علينا بتأليف القلوب والاتحاد في سبيل الحق، حتى أصبحت رابطتنا الملية كالعصبية الجنسية، وافراد أبناء الملة باجتماعهم واتحادهم الديني كالاخوة في القرابة النسبية، الذين يرجعون الى اصل واحد يعرفونه ولا ينكره منهم أحد . وانذرنا بأن المتفرقين عن الحق والمختلفين فيه بعد مجيء البينات وتبين الايات، هم الذين يمسهم العذاب العظيم، وأكد لنا النهي بتكريره لكيلا نكون كالفريق المتفرق فيجري علينا حكم سنته العادلة وحكمته البالغة، هذا بعد ما نبهنا على انه ما بين لنا ذلك الا رجاء اهتدائنا بالتمسك بهديه، والاعتصام بحبله، وفرض علينا القيام بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر لئلا يجهل ما أمر الله به ونهى عنه، فينبذ الطاعة ويشذ عن الجماعة، فيسقط في مهاوي الهلكة، وتفترسه الذئاب المادية، ويكون عبرة للمعتبرين

لقد صدقنا الله تعالى وعده ووعيده، وظهر فينا تأويل كتابه، وتفذفي أبناء ملتنا حكم سنته في أهل الشقاق والافتراق، وما ظلمهم الله ولكن كانوا انفسهم يظلمون

كانوا من عهد نبيه «عليه الصلاة والسلام» والخلفاء الراشدين المهديين من بعده متمسكين بكتاب الله المبين، ومعتصمين بحبله المتين، كلمتهم واحدة ووجهتهم متفقة، ففتحوا الفتوحات، ونشروا لواء العدل واتسع سلطان ملكهم بما أزالوا من سلطة الفرس والرومان وغيرهما، حتى كان في أواخر مدة الخلافة الراشدة ما كان من الاختلاف والافتراق، أثار ما أثار مما لا يخفى على أولي الابصار — ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم لما سكنت الزعازع، وسكت المنازع للمنازع، وخفض المسلمون لامير واحد انشعب صدعهم، واندمل جرحهم، وتنبهوا لمصالحهم، وتيقظوا للقيام بشؤونهم، فاندفعوا كالسيل يتسابقون لاكتساب الكمال وادراك المجد المؤثل، فتغلبوا على الممالك، وتوسعوا في مجال الفنون من العلوم والصنائع، وأيد الله تعالى دينهم على الدين كله، حتى دخل فيه في اقل من قرن واحد أكثر من مائة الف نفس من غير حرب ولا كفاح، وافتتحوا في نحو ثمانين سنة زيادة عما افتتحه الرومانيون في ثمانمائة سنة، فامتد ملكهم من القاموس الاتلانتيك من جهة المغرب، الى تونكين الصينية في اطراف المشرق، ودام لهم هذا السلطان باتفاقهم وتضافرهم الى أمد ليس بقريب، وهم في خفض من العيش ورغد من الحياة، لا يضارعهم في ذلك مضارع، ولا ينازعهم فيه منازع، ثم لما تعددت فيهم الامراء، وانقسم ملكهم الى عدة ممالك كل مملكة تستقل تحت رياسة سلطان، وذهلوا عن مخالفة ذلك لاصول دينهم الراسخة جذورها في تربة الحكمة الطيبة، الضاربة فروعها في سماء المجد والعزة، والمثمرة بمراعاتها جنوا ما جنوه من ثمرات السعادة — انظر ماذا آل اليه أمرهم، لم يلبثوا الا ساعة من نهار يتعارفون بينهم،

حتى تناكرت الوجوه ، وتقلبت القلوب ، واختلفت رغائب الامراء ، وعكف كل على شأن نفسه يعمل لها لا للامة ، فصار نهارهم ليلا ووزنهم كيلا ، فنزلت بهم المصائب ، وانتابتهم النوائب ، فمزقت بمخالبها أديمهم ، ومضغت بانيابها لحومهم وصاروا سلفا ومثلا للآخرين . فلو راجعت تاريخهم واستقريت أنباءهم ورأيت كيف عاث في بلادهم جنكيز خان التتاري واحفاده ، وكيف فتك بهم تيمورلنك وأضرابه ، ثم كيف فاض عليهم طوفان أوربا في الحروب الصليبية ، وسمعت صدى أصوات نسائهم منعكسا عن صفحات الكتب : تدعو بالويل والثبور ، لهتك الستور ، وعظائم الامور ، لفاضت عيناك حزنا ، وتمزق فؤادك أسى وشجنا

ثم ارجع البصر كرتين نحو غربي بلادهم وشرقيها ، وتأمل ما حل بهم في الاندلس ، وأسحب أشعة نظرك على ما نزل بغيرها من بلادهم ، حتى تنتهي الى البلاد الهندية ، والممالك التيمورية ، التي تغلبت عليها الامة البريطانية ، ولعلك قد شاهدت أو حدثك من شاهد ما رزؤا به بعد ذلك من جور المتغلبين وطمع الطامعين ، ولا تزال الفتنة ترمي في بلادهم بشرر كالقصر ، وكادت تعم كل بادية ومصر . ولا أرى عاقلا يرتاب في أن كل ذلك نتيجة تفرقهم واختلافهم وتشتت أهوائهم ، وهو ما حذرهم الله غائبه ، وأنذرهم مغيبه ، فماروا بالنذر ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، وما ربك بظلام للعبيد . ولا رجاء في الامن على ما بقي لهم فضلا عن استرجاع ما سلب منهم الا أن يتحدوا جميعا تحت لواء الخلافة ويكونوا كجسم واحد اذا تألم له عضو تداعى له سائر الجسد ، وكالبنيان

يشد بعضه بعضا ، كما جاء في هدي صاحب الشريعة صلى الله عليه وعلى آله وسلم

ان الدين الاسلامي كان أول ظهوره في الامة العربية وهي أشد الامم تعصبا للجنس وتحزبا له ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وانتزع من قلوبهم حمية الجاهلية وامتاخ من نفوسهم التعصب للجنس والمشرب ، ومن كلام صاحب النبوة عليه السلام « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية » . حتى لم يبق للآخذين بهذا الدين عصبية في غير دينهم ، وسواء في ذلك العربي والعجمي ، ألم تر أن الوالد كان يقتل ولده لاجل الدين ولا تصده عن الفتك به رحمة الابوة ، والولد يقتل أباه ولا تمنعه من سفك دمه حرمة الوالدية ، ثم انهم كانوا يقفون في تعصبهم موقف الاعتدال ، ولا يتعدون — ولا سيما في حال السلم — حدود الفضيلة والكمال ، كما ترشد اليه آداب الشريعة . ولم يرسخ في نفوس المسلمين في أوائل نشأتهم خلق الاما كان مستنداً الى أمر ديني ، ولم تجتمع كلمتهم للقيام بشأن من الشؤون الا أن يكون عن باعث الدين . ثم لما افترق المسلمون شيعا ، وانقسموا في الاصول الى عدة مذاهب ، وكان كل يدعو الى مذهبه عن وازع الدين ، كان لهذا الاختلاف اليه الطائلة في تفرق الكلمة وفساد بعض الملوك والامراء ، وكان لذلك من سوء العاقبة مالا يجهله من نظر في دواوين المؤرخين وأسفار الاخبار ، وهذا من أوضح الشواهد وأبين الآيات على ان الحق في الاصول لا يتعدد ، وان المصيب واحد ، ومن عداه كافر أو مبتدع ، وان اختلاف المذاهب تفرق في الدين والله تعالى يقول « أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » فالدين يدعو الى

الاجتماع والتوحيد، والمذهب يدعو الى الفرقة والتبديد، فهو ضد الدين وأثره مناقض لاثره . ومن مقومات سعادة هذه الامة أن يجتمع علماء المذاهب والفرق لاسيما الفرقتان العظيمتان أهل السنة والشيعة ويفرغوا وسعهم لازالة الخلاف من الخلاف، واستبدال الوفاق بالشقاق. ومتى جعلوا غرضهم الحق ورائدهم الانصاف اهتدوا الى الصراط المستقيم

ان الخلاف في الاصول ذرع أركان الاسلام، بخلاف اختلاف الائمة المجتهدين في الفروع، ولاسيما في المعاملات والاحكام القضائية التي يحكم فيها العرف ويختلف باختلاف الزمان، فانه قد يتعدد الحق فيها ويمكن أن يكون القولان المختلفان ولو في النفي والاثبات مشروعين، وكل منهما حق في الواقع وانما اختلافهما لاختلاف الازمنة أو الامكنة أو الاشخاص. ذهب الى ذلك بعض الاصوليين وكاد يطبق عليه أهل الكشف والشهود، وفيه ألف العارف الشعراني كتاب الميزان الشهير الذي تلقته علماء الامة بالقبول، وقد نسب الامام النووي القول بأن كل مجتهد مصيب، الى جمهور المحققين (كما في شرح مسلم)

ألم تر ان اختلاف أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد لم يثر في الملة نزاعا يذكر، ولم يضرم نارا يوقد الفتن تتسعر، ولم يكن من أثره الا منافسات شخصية بين بعض أرباب الظهور . من علماء الرسوم والقشور، عند ما بعد عهد الائمة وطال الامد على اتباعهم، فقسق الكثير عن هديهم، وانحرف بهم السبيل عن سبيلهم. أما الخلاف الخوارج والمعتزلة والشيعة

وأهل السنة بعضهم مع بعض فقد كان من أهواله وسوء مآله ما أشاب النواصي، واقتضت له شوائخ الصياصي

ان أولي الاختلاف بعدم اثارة النزاع واضرام نار الفساد اختلاف مناهج شيوخ الطرق والسلكين ، في كيفية الدلالة على رب العالمين ، بل لا يجدر بنا ان نسمي التفنن في وسائل الهداية اختلافا اذ لا اختلاف في الحقيقة كما أشار اليه قائلهم

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكل الى ذاك المقام يشير

وقال سيدي عمر بن الفارض مشيرا الى ذلك

فكم بين حذاق الجدال تنازع وما بين عشاق الجمال تنازع

أولئك القوم لا مشارف طريقهم للبغضاء ، ولا مبعث للشحناء ، ولا مهب لرياح الاهواء، أولئك القوم لا مواقد في مناهجهم تضرم فيها نيران الفتن، ولا مجال تتراكض فيه خيول الاحن والمحن ، أولئك القوم لا سعة في سبيلهم للتقاذف والتنابز ، ولا فسحة للتقاطع والتدابر ، قوم قاموا بخدمة مولاهم ، وأخلصوا له في سرهم ونجواهم ، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا . خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا. اغتروا بآداب الناس مع القوم وتسليم أحوالهم اليهم، وان أشكل ظاهرها وساء مشهدها، تخلطوا في الطريق ما ليس منه، وهم مخالفون في السيرة والسريرة لمن يدعون اتباعهم، ويزعمون انتحال نحلتهم، وانتحاء مناحيهم، ويحتجون على ناصحهم بالفاظ يقولونها، وكلمات يلوكونها، يشبهون فيها الظلمة بالضياء، ويشتبه عليهم الغرور بالرجاء، يأخذون عرض هذا الادنى ويقولون سيغفر لنا وان يأتهم عرض مثله

يأخذوه، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ؟ ودرسوا ما فيه، والدار الاخرة خير للذين يتقون أفلا يعقلون، دب اليهم داء الامم قبلهم فقسدت أخلاقهم، وخبثت أعمالهم، تحاسدوا على الاعراض البالية وتنافسوا فيها، وتباغضوا في الاغراض الخسيسة وتهالكوا عليها، تلامزوا وتنابزوا بالالقاب، وتباروا وتفاخروا بالانساب، وقلد الصادقين المدعي الكذاب، في جملة من الوسائل والاسباب، فحسر التميز بين البرىء والمرتاب، الا على الافراد من أولى الالباب، وما كفاهم هذا الهبوط والسقوط، ولم يقنعوا بهذا الاعتداء والاستعلاء، حتى تسلقوا صرح العلو علوا وفسادا في الارض، فظن بعضهم بدين بعض وغض من طريقته أي غض، ابتغاء الفتنة وسفك الدماء، وطلبا للبأساء والضراء، فتبت يدا الجاهل، وزلت قدما العامل، فتدهور في هاوية الخسران، وانهار به الجدار في جحيم الخذلان، وما للظالمين من أنصار.

تلك قصة القادرية مع الرفاعية، أستغفر الله من ظلم أهل الطريق بل بعض المنتسبين اليهم قولا، المتخلفين عنهم تخلقاً وعملا، طبع للقادرية بعض كتب في مناقب الامام الجليل سيدي عبد القادر الجيلي (قدس سره) لم يذكر في بعضها نسبة الولي الشهير سيدي أحمد الكبير الرفاعي (قدس سره) لاهل البيت النبوي عند ترجمته اتباعا لجماهير المؤرخين، وذكر في بعضها اثبات تلك النسبة بعد نقل القول بنفيها، فطبع الرفاعية رسائل وكتبا عرضوا في بعضها بنسب الامام الجيلي، وصرحوا في بعضها بالقطع بانكاره، وبنسبة الشطح والاضلال له استدلالا بهما على عدم تمكنه في الولاية، وأنكروا منقبة القدم، وأكثروا من الطعن في المؤلفين في مناقبه لا سيما العلامة الشطنوفي

صاحب كتاب بهجة الاسرار ، فالف أهل هذا العصر من علماء القادرية كتابا سماه (الفتح المبين فيما يتعلق بترياق المحبين) وهو كتاب للرفاعية صرحوا فيه بما أشرنا اليه من المطاعن. أثبت هذا القادري في كتابه نسب السيد الجيلي بالنقول الكثيرة عن العلماء والمؤرخين، وتكلم في منقبة القدم واثباتها، ونقل بعض ثناء العلماء على الامام الشطنوفي، كل ذلك على سبيل الرد على مافي كتاب ترياق المحبين ، وزاد على ذلك بعض فوائد ومواعظ مأثورة عن الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه، وانتقد بعض رسائل للرفاعية واعترض على أكلة الافاعي واللاعبين بالنار منهم

لم يمض على طبع هذا الكتاب زمن قصير حتى قام بعض الرفاعية بتلفيق كتاب أتى فيه بالعجب العجاب . أغرق بالطعن في طائفة القادرية وغلا غلوا كبيرا، فحكم بأن جميعهم من أهل البدعة، بل تجاوز فقال بكفرهم والعياذ بالله تعالى، وزعم انهم يتسترون بالدين، ويتظاهرون باتباع الطريقة القادرية غشا وخديعة للمسلمين، ليتمكنوا من افساد عقائدهم، ولانهم دائبون في السير الى هذه الغاية ، متفننون في التلاعب بالدين، واذية سيد المرسلين، وأرباب الطرق كافة، والرفاعية خاصة . ورتب على هذه المزاعم الباطلة انه يجب على المسلمين كافة والرفاعية خاصة ان يفرغوا الوسع باستئصالهم ومحوهم من وجه البسيطة نصرة لله ولرسوله وحفظا للدين القويم !!!

هذه أول سيئة لذلك الكتاب ، سودت بها صحائف مقدمته ووراءها في قلبه فتن كقطع الليل المظلم، منها انه أناط ما نسبه من العظائم الى السادة القادرية بسيد منهم علي المكانة، رفيع المنزلة، قوي العصبية، معروف القدر عند عامة المسلمين وخاصتهم ، وقد أكثر بعد ذلك من الحط عليه، وشنأه

بصراح المنكر من القول، بعد ماغالى في الطعن سنده امام العارفين الشيخ عبدالقادر برأه الله تعالى بما لم يسبقه على الجراءة بمثله سابق ، وأفرط في الجرح والايذاء لذريته المباركة ، حتى تعدى لمن أثنى على حضرته التنزيهة ، وألف في مناقبه من أكابر العلماء — كل ذلك ليحض ذلك السيد وأتباعه ، ويحرض أنصاره وأشياعه ، على الخوض في تيار الفتنة وغشيان سوقها التي نصبها بالكلام السيئ الذي يحرك الجماد ، ويلقي في أرض الدعة والسكون بذور الفساد . هذا بعد ماصرح في المقدمة بأنه ألف كتابه مرضاة لجماعته الرفاعية ، وانهم أجمعوا على طبعه ونشره ، وذكر من كثرة عددهم وقوة حزبهم ماأراد به اظهار استضعاف القادرية دونهم ، ليثبت بذلك تحقق العداوة والتضاد بين الفريقين ، ويبرزهما في صورة الخصمين المتنازعين ، فيسري سم دسيسته في أرواحهم ، وينفذ سهم فتنته من قلوبهم ، وتشب نيران الضغينة التي أوقدها في أفئدتهم ، فتنشب لها حروب داخلية ، يهي لها بناء الامة ، وينصدع شمل هيئتها المنشعب بحكمة المستوي على منصة الخلافة مولانا السلطان الغازي عبد الحميد خان ، الذي فاض معين سياسته وفضله فاستقى منه العمران البشري وروي نوع الانسان

وليته وقف عند هذا الحد ، الذي لم يدن نحوه قبله أحد ، فانه تعداه إلى الكذب على الله ورسوله بالخبط والخلط في أصول الشريعة وفروعها ، وعلى الاولياء والعلماء بنقله عنهم مانقطع ببراءة ساحتهم منه ، والحاقه بهم من مانجزم بطهارة اردانهم من التلوث به ، وتفضيله ابن الرفاعي عن جميعهم ولم يستثن الا أئمة الشيعة الاثني عشر دون الائمة المجتهدين ، بل نقل عن كتب فقه مايقتضي مساواته للنبي صلى الله عليه وسلم في بعض الشؤون !!!

ومشاركته له في بعض خصائصه، الى غير ذلك من التلاعب في فنون العلم من غير روية ولا فهم، فما كان الا تبديل أحكام وزعزعة نظام

أتيح لي النظر في ذلك الكتاب في هذا العام عام ١٣٠٨ ثمان وثلاثمائة وألف . فكنت كلما تصفحت من صفحاته ، وتأملت جملا من عباراته ، تنابني من الغيرة على الدين لوافح الانفعال ، وتناوبني من الحيرة في جرأة مصنفه لوائح الامتعاض ، فما أتيت على آخره الا وقد نفثت في روعي روح الحق، وهتف في هاتف الامانة الدينية والصدق : ان انهض ممتثلاً لقوله جل علاه (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله) وانشأ كتابا يكون فرقانا بين الحق والباطل ، وبرزخا بين حلم الحليم وجهل الجاهل، يسلك في حسم النزاع بتحرير منازعه مهيع الصواب ، ويجري بحسب الاستطاعة مواقع المحكمة بفصل الخطاب ، يتهم مع الحقيقة ويعتمد ، ويصوب النظر حيث يرى الصواب ويعتمد ، لا يميل مع أحد الرجحين، ولا يتطرف الى أحد الطرفين ، فاستعنته تعالى على القيام بهذا العبء ، واستهديته الى اخراج هذا الخبء ، فوجدته عجيبا يلبي من ناداه ، قريبا يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، ورتبت الكتاب على ستة مقاصد وخاتمة

(لها بقية)